## الفصل الخامس:

يجب أن تكون صلكاح مدينة الملك أوك في باشان مكانا حصيناً منذ بداية التاريخ، وتتعنقد المدينة الحديثة حول قاعدة بركان صغير، حيث بني على القمة في قلب فوهة البركان قلعة مخربة، وهذه القلعة وأسلافها من القلاع التي بنيت في فوهة البركان، تشكل مركز الدفاع الخارجي لجبال حوران ضد الصحراء، مركز دفاع أبكر المدنيات ضد أبكر الغزاة النهابين. وتسقط الأرض فجأة إلى الجنوب و الشرق، وينقطع هذا السقوط بتل أو تلين بركانيين فقط في الجوار مباشرة، ثم تستقر في السهول الطويلة حتى تصل إلى وادي الفرات ممتدة على نحو مستقيم مثل سهم انطلق من القوس الروماني الذي يشكل الطريق من صلخد باتجاه الصحراء في خط لم يسر فيه رحالة غربي أبعد من مرحلتين أو ثلاث. ويبتدئ خط القوافل إلى نجد من هنا ماراً قرب الكف وأثرح على طول وادي السرحان، حتى الجوف وحايل، وهو طريق محفوف بالمخاطر مع أن البلونت عبروه بنجاح وعبره بعدهم إيتنغ. ويتميز وصف إيتنغ بكل ما يتصف به العلم والدقة الجرمانيين، وهو أفضل ما لدينا. وعلى خط مستقيم إلى الجنوب من صلخد ثمة قلعة مخربة رائعة تسمى قلعة الأزرق، وهي واقعة في واحة حيث يوجد حرش كثيف ممتلئ بالخنازير البرية. وقد زار هذه الواحة دوسو وقدم وصفاً رائعاً لرحلته. ومما لا شك فيه أنه لا يزال هناك الكثير مما يمكن اكتشافه. وثمة قصص كثيرة تعرفها الصحراء لم تتم روايتها بعد. وفي صلخد من الصعب أن تحتفظ بقدميك ونفسك من الالتفات جنوبا حيث تدعوك بإغراء هذه السهول العظيمة الغامضة.

ذهبت مباشرة إلى بيت نسيب الأطرش وقدمت له رسالة فلاح العزو، وهو رجل في السابعة والعشرين من العمر، وإن كان يبدو أكبر بعشر سنوات.. قصير القامة أنيق مع ملامح قاسية يتميز بها الدروز وتعبير يوحي بالمكر أكثر مما يوحي بالبهجة، وقد استقبلني في مضافته حيث كان يجلس مع أخيه جاد الله وهو شاب طويل مع وجه جميل يوحي بالغباء وقد حياني بكلمة «بون جور» ثم انكتم صامتاً منتهياً بالكلمة الوحيدة التي يعرفها باللغة الفرنسية. وكما استعار عبارة من اللسان الأوروبي فقد استعار قطعة من اللباس من نفس المصدر، ياقة كثيفة عالية بدت غريبة مع ثيابه العربية. كان ثمة عدد ضئيل من الدروز الذين يحتسون القهوة في المضافة، وشخص أدركت منذ الوهلة الأولى أنه غريب. وقد تبين أنه مدير مال الحكومة التركية، والحقيقة أنني لا أعرف وظيفته بالضبط، ولكن ضآلة سيماه توحي بعلاقته بالمال. وصلخد من ثلاث مدن في جبل الدروز (المدن الأخرى هي السويداء وعرى). في كل منها قائم مقام ومحطة برق. وقد دهش القائم مقام يوسف أفندي، ومدير المال ملحم إليان كثيراً عندما جئت من الصحراء بدون إنذار، أو إذن، وكانا يرسلان ثلاث برقيات يومياً إلى والي دمشق يذكران فيها كل ما أقوله أو أفعله، وهكذا وعلى الرغم من أنني كنت على علاقة جيدة مع كليهما، فقد وجدت أن ملحم هو الأكثر ذكاء وحسن تصرف في القرية كلها، وأنا أخشى أن أكون قد سببت لهما الكثير من التشوش الذهني. والآن دعوني أقل: إن تجربتي مع الموظفين الأتراك قادتني إلى اعتبارهم من بين أكثر الرجال أدباً وحسن تصرف، فإذا أنت تقدمت إليهم بالوثائق المناسبة فليس هناك شيء لا يقدمونه لخدمتك ومساعدتك، فإذا أوقفوك فذلك بسبب أنهم مرغمون على إطاعة الأوامر العليا. وحتى عندما تُهمل كما يجب أن يحدث بين فترة وأخرى فإن الرفض

يعرض بلغة استرضائية وكأنه غلطة. ويخفون انزعاجهم ولا يظهرون لك أي استياء من المتاعب التي سببتها لهم، ويشغل موظفو الحكومة في الجبل وضعاً ليس سهلاً على الإطلاق. صحيح أن هدوءاً قد ساد الجبل في السنين الخمس الماضية، ولكن الدروز شعب زئبقي التكوين سريع الغضب، وقد فهمهم ملحم جيداً. ووظفيته في مركز برق صلخد الجديدة دليل على رغبة الوالي الحقيقية بتجنب المشاكل في المستقبل. وقد خدم في السويداء عدة سنوات قبل المجيء إلى صلخد، وهو مسيحي ولذلك لا يعتبره الدروز على الطرف الآخر من الفجوة التي تفصل بينهم وبين الإسلام، وهو يعرف جيداً أن الحكم التركي في جبل حوران يعتمد على قلة المطالب من هذا الشعب التابع اسمياً للدولة والمستقل عملياً. ولم يكن يوسف أفندي بعيداً عنه كثيراً في قوة اقتناعه بهذه المسألة، وكان لديه أعظم الأسباب التي تجعله يعلم مقدار ضحالة سلطته.

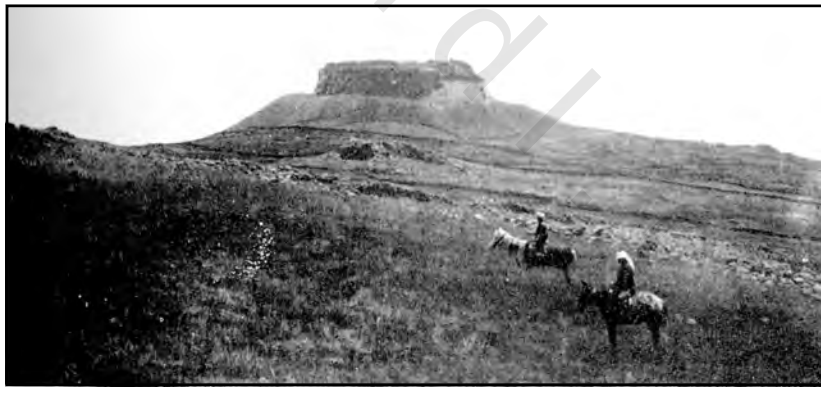

٤٨ ـ قلعة صلخد

ولا يوجد أكثر من مائتي جندي تركي في جميع أنحاء الجبل، وهناك قوة من الشرطة الدرزية قد سُروا بلبس الزي الرسمي، وأخذ الرواتب الحكومية في الحالات النادرة التي تصل إليهم، ولذلك فهم لا يعدون قوة حكومية

يوثق بها في حال وقوع أي خلافات جدية بين شعبهم وبين السلطان. وحسب المظهر الخارجي فإن نسيب وأخيه يرتبطان بعلاقة صداقة جيدة مع القائم مقام، وهما يجلسان دائماً في مضافته يحتسيان قهوته، ولكن حدث ـ وكنت وحيدة معه ـ أن قال بصوت مثير للشفقة بعربية مختلطة بالتركية: أنا لا أعلم ما يبيتون، وهم يعدونني عدوًا لهم، وإذا أرادوا أن يعصوا أوامر دمشق فإنهم يقطعون أسلاك البرق ويمضون بدون وجل، وليس لدي أي قوة تستطيع أن تمنعهم.

٤٩ ـ نسيب الأطرش

وعلى أي حال هناك إشارات تدل على أن شعب الجبل المتمرد هذا قد صرف فكره إلى أمور أخرى بعيداً عن الحرب مع العثمانيين. ومن بين أهم الأمور، الطواحين المائية التي تطحن القمح في صلخد وفي بعض القرى المجاورة، والرجل الذي يملك طاحونة مائية مضطر للمحافظة على النظام، فقد كلفه بناؤها مبالغ محترمة وهو لا يريد أن يراها مخربة من قبل الجيش التركي، مضيعاً رأسماله، بل على العكس من ذلك فهو يأمل أن يربح من ورائها بعض المال. وقد وجد نشاطه المتواصل منفذاً مفيداً في هذا الاتجاه. وفي رأيي أن السلام قد استقر على قواعد أكثر ثباتاً مما كان قبل خمس سنوات. وأن الحكومة العثمانية لم تكن بطيئة في تعلم الدروس من الحرب الأخيرة. ولو علم والي دمشق كم كانت إجراءاته الحديثة مواتية ومقدار

تأثيرها في تفكير هذه المرأة الإنكليزية المخادعة لكان وفر على عمال البرق الكثير من ساعات العمل.

٥٠ ـ جماعة من الدروز

من النادر الحصول على مثال عن الحرية التي يدير بها الدروز شؤونهم أفضل من ذلك الذي حدث أمامنا في مساء وصولنا إلى صلخد، كان قد ألمح سابقاً حسب شهادة فندي أن العلاقة بين الصحراء والجبل مفعمة باحتمالات حوادث القتال المعتادة، ولم يمرّ عصر ذلك اليوم في صلخد حتى اكتشفنا أن الغزو الذي حدث قبل عدة شهور كان الموضوع الرئيسي الذي يشغل نسيباً وأخاه، وليس ذلك الذي تحدثا به معي. ولكنهما أصغيا بانتباه عندما تحدثنا عن الغزو على عشيرة الحسانية، والدور الذي أداه الصخور في هذا الغزو.

واستخلصوا منا كل ما نعرفه أو نخمنه، مثل مكان مضارب الصخور الحالية، ومن أي مسافة جاء الغزو وبأي اتجاه انسحب الغزاة. كما همس البغالة على رأس الرجال في زوايا الشارع، وكان همسهم عن الاستعدادات للحرب. والمجموعة التي تجلس حول نار ميخائيل، وهي دائماً مركز نشاط اجتماعي حول الأذيات التي لا يمكن تحملها، أو السماح بمرورها وكأنها غير موجودة

**٥١ ـ منظر الجنوب الشرقي كما يبدو من قلعة صلخد**

وقد جلب أحد أبناء عم محمد الدرزي العديدين إلى البيروتي الجائع مع غداء منكه بتلميحات سوداء حول تحالف غير رسمي بين وادي السرحان وبني صخر الذي يجب أن يكبح قبل أن ينضج ويتخذ نسبة من الخطر. ولا يمكن أن تصل موجة الغزو صلخد إلا بصعوبة كبيرة، ولكن الأذى قد يفعل كثيراً بالأرزاق قبل أن يمس الإنسان، وهذه النقطة على جانب من الأهمية وخصوصاً في الشتاء عندما تكون كل ذوات الأربع باستثناء الخيول بعيدة في السهول الجنوبية.

تم نصب مخيمي في حقل خارج البلدة عند أقدام الجهة الشرقية لقلعة صلخد، كانت المنحدرات الشمالية مغطاة بالثلج حتى أسوار القلعة المخربة، وحتى في مكان نزولنا كان ثمة بقع من الثلج المتناثرة، ساقتها الرياح وهي تتألق تحت ضوء القمر. كنت قد أنهيت عشائي تواً، وأخذت أحدث نفسي فيما إذا كان يتعين علي أن أكتب مذكراتي في هذا الطقس الشديد البرد، عندما سمعت أهازيج وحشية مزقت صمت الليل. واندلعت نار عظيمة قرب أعلى نقطة في أسوار القلعة، إنها نار الإنذار قد اشتعلت لتحذر من مجيء الغزو إلى القرى الدرزية المتعددة المتناثرة على السهل أسفل القلعة، والأهازيج دعوة للسلاح. وكان ثمة شرطي جالس بجانب نار مخيمنا، وقد قفز على قدميه وحملق فيَّ في البداية، ثم بوهج النار أعلى القلعة. فقلت: «هل تعطوني إذناً في الصعود إلى القلعة؟».

قال: «ليس هناك مانع! شرفينا!».

وتسلقنا معاً فوق الطين نصف المتجمد من الجهة الشمالية المثلجة من البركان، جاعلين طريقنا في الظلام حول أسوار القلعة، حيث رماد اللابه ينهار تحت أقدامنا. ثم برزنا في ضوء القمر الكامل لنطل على أكثر المناظر التي يمكن أن تراها العين وحشية. جمع من الدروز، شباب وأولاد واقفون على حافة الخندق على شريط ضيق من الهضبة. كانوا جميعاً مسلحين بالسيوف والمدى، وكانوا يهزجون عبارة وراء عبارة بأصوات مفزعة. كان كل مقطع منها يعاد عشرين مرة أو أكثر، حتى يبدو للسامع وكأنها قد التصقت كما يلتحم الحمض بالنحاس في الأعماق الداخلية للعقل.

عليهم.. عليهم.. يا الله.. يا ربنا يوقعوا أعداءنا لنحصدهم بسيوفنا..

عليهم.. عليهم.. لتشرب حرابنا من قلوبهم!

لنجعل الرضيع يترك ثدي أمه!

والشاب ينهض ويروح!

عليهم عليهم يا الله يا رب تشرب سيوفنا من قلوبهم!

هكذا كانوا يهزجون، وبدا وكأن ثورة غضبهم لن تنتهي أبداً. وكأن أسوار القلعة لن تتوقف عن ترداد صدى غضبهم اللامتناهي، والليل لن يعرف السكون مرة أخرى. ثم توقفت الأهازيج فجأة وتفرق الهتافون، ثم عملوا دائرة بحيث أمسك كل رجل بيد جاره، ووقف في داخل الدائرة ثلاثة شبان بيدهم السيوف وأخذوا يدورون بخطوات واسعة حول دائرة الشباب المحيطين بهم، وكانوا يقفون أمام كل فتى من فتيان الدائرة ويهزون سيوفهم ويصرخون..!

هل أنت رجل طيب؟ هل أنت رجل حقيقي؟

وكل شاب يجيب.. «ها.. ها..»

وسقط ضوء القمر على الوجوه السمراء، منعكساً على السيوف المشرعة، وأخذت حرارة الجو الحربي الملتهب تنتقل من يد إلى يد، والأرض تصرخ باتجاه السماء: الحرب، الحرب الحمراء.

ثم شاهدني أحد الشبان الثلاثة أقف في الدائرة فخطى نحوي بسرعة وأشرع سيفه فوق رأسه، كما لو كانت أمّة تحيي أمّة «يا سيدة..» قال: «الدروز والإنكليز شعب واحد».

وقلت: «شكراً لله ونحن أيضاً شعب محارب».

وفي الواقع وفي مثل تلك اللحظة، يبدو الأمر وكأنه لن يكون هناك أمتع من أن تذهب وتقتل عدوك.

وعندما انتهت عهود المحاربين نزلنا الهضبة تحت ضوء القمر والأيادي مازالت متشابكة، وقد لاحظت أن بعض المشاركين كانوا أطفالاً صغاراً لم يبلغوا سن الجدعنة بعد. وقد سألت رفيقي الذي كانت يده ممسكة بيدي: «هل سيذهب كل هؤلاء الأطفال معكم؟».

«بالله.. ليسوا جميعاً.. الأولاد الصغار يجب أن يبقوا في البيوت ويدعون الله أن يأتي اليوم الذي يكبرون فيه ليذهبوا للحرب».

عندما وصلنا إلى مدخل البلدة، صعد الدروز إلى سطح أحد المنازل، وبدؤوا بأهازيجهم الشيطانية مرة أخرى، وأشعلت النيران على أسوار القلعة، وأصبح الليل بارداً على نحو مفاجئ، وبدأت أشك فيما إذا كان ملحم ووالي دمشق يمكن أن يتصوراني مشتركة في مظاهرة عسكرية مع الدروز ضد الصخور ويبقون على الاعتقاد ببراءة رحلتي. ولذلك تراجعت إلى الظل وركضت هابطة باتجاه مخيمي، وعدت أوربية مرة أخرى. وانكببت على عمل سلمي غير ملم بالعواطف البدائية المجردة للكائن الإنساني.

كان لدينا تساؤلات معينة لنجعل لرحلتنا معنى، وأن نُخزن مواداً تموينية قبل أن ننطلق إلى الجهة الشرقية للجبل حيث لا توجد قرى كبيرة ولذلك فقد قضينا يومين في صلخد، والصعوبة الكبيرة في موضوع التموين هي مشكلة الشعير للحيوانات. كان ثمة مقادير كافية منه في قرية أم الرمان،

ولكــن لا يوجـد منه شيء في صلخـد. ويجب دائمـاً الذهـاب إلى السـويداء لتأمين ذلك، وفي السويداء المركز الرئيسي للحكومة التركية والطريق إليها بعيـدة عبـر التـلال، ولذلك فقـد قـررنا أن نرسل إلى مـتان حيث الطريق إلى هناك خالٍ من الثلج. ومن المهم أن نسـجل أنه في الشتـاء عندما تكون جـميع قطعان الأغنام بعيدة عدة ساعات في السهول، يصبح من المستحيل الحصول على رأس من الغنم في الجبل ويصبح الرحالة مضطراً لأن يتدبر أمره بشيء آخر مثل تلك الفراريج الهزيلة التي يمكن أن يجدها. وقد أثر قصر النظر في العواقب ـ الذي جعل مخزن لحومنا فارغاً ـ على ميخائيل بشكل كبير. كان يتباهى بما عود نفسه على أكل شواء أفخاذ الضأن وكان يتساءل كيف أن كل الكتب التي جلبتها معي لم تلمح إلى غياب الحيوان الذي يمكن أن يسد مسده مقدماً نفس الطعم الشهي. وقد أجبت أن كُتاب هذه الكتب أكثر اهتماما بالآثار الرومانية من الاهتمام بمثل هذه القضايا الخطيرة الشأن كاللحم

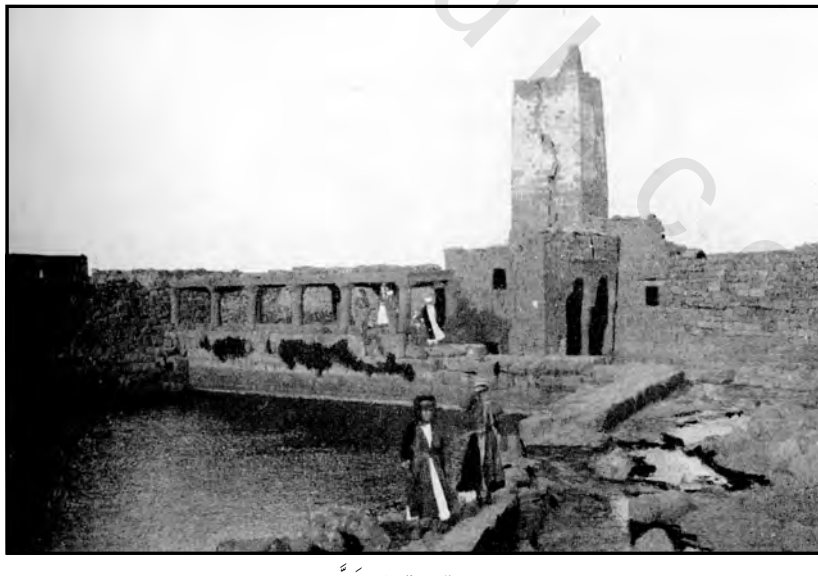

٥٢ ـ قرية القرَيَّه

المشوي وصنوف اليخنة. حيث أجاب بحزم: «عندما تكتبين فخامتك كتاباً يجب أن لا تقولي: هنا توجد كنيسة جميلة، وقلعة كبيرة. فالسادة الذين سيقرؤون الكتاب يرون ذلك بأنفسهم، ولكن يجب أن تقولي: في هذه القرية لا يوجد دجاج، فعند ذلك سوف يعرفون من البداية أي نوع من البلاد هي».

قضيت اليوم الأول من زيارتي مع نسيب أراقبه وهو يصدر الأوامر من أجل طحن القمح اللازم من أجل الحملة العسكرية القادمة (الأمر الذي تجنبنا الإلماح إليه بإصرار) مصورة إياه والوجهاء من قريته. وتغدينا معه في مضافته خبزاً مرقوقاً مثل الورق بني اللون ومبرغلاً مع الدبس. «وهو نوع يشبه دبس السكر مصنوع من عصير العنب المغلي»، ونوعاً مقرفاً من الحساء المصنوع من اللبن الحامض ممزوج بفتات من الدهن يطلق عليه الدروز اسم (قرق Kirk) وهم يحفظونه ويقدرونه كثيراً.

وسافر نسيب بعد الظهر لمسافة عشرة أميال إلى الجنوب ليحل خلافاً بين قريتين من أتباعه. ودعاني لاصطحابه ولكنني فكرت أنه ربما كانت هناك قضايا أخرى آنية يمكن أن تكون مزعجة إذا كان على الغريب أن يطلب العون، وسويت المسألة بالموافقة على السير معه مدة ساعة ثم أنحرف جانباً لأصل إلى مزارٍ على قمة أحد التلال لولي الله الخضر الذي (ليس هو إلا مار جرجس). وركب نسيب في موكب مكون من عشرين رجلاً مسلحاً إلى جانبه. وقد ارتدى على نحو مترف معطفاً طويلاً من قماش أزرق غامق طرز بخيوط سوداء، مع حطة زرقاء فاتحة ثبتت بطيات التربان الأبيض المحيط بطربوشه. وبدا موكب الفرسان رائعاً، وكان كل الرجال يلتفون بعباءاتهم ويضعون بنادقهم على ركبهم، وقد ناولوني البنادق الواحدة تلو الأخرى لأقرأ الكتابة المكتوبة على

كل واحدة. كانت من أصول مختلفة، ومصنوعة بتواريخ مختلفة أيضاً، بعضها قديم بطل استعماله، مسروق من الجنود الأتراك، ومعظمها الآخر فرنسي حديث على نحو معقول، وقليل منها مصري قد نقش عليه الحرفان (V.R.) ذو حربة مسطحة. وركب نسيب معي بعض الوقت وأخذ يسألني عن طبقتي الاجتماعية، وعما إذا كنت أركب بمركب بريطاني، وما مقدار ثروة أبي. ولم يكن فضوله خالياً تماماً من الغرض. فقد كان الدروز يأملون دائماً في إيجاد دولة أوربية غنية يستطيعون أن يعتمدوا على تعاطفها، وتستطيع أن تمولهم وتسلحهم في أي حرب أخرى يمكن أن تندلع بينهم وبين السلطان. وقد عبرت إجاباتي عن الوضع المزري لأهليته في هذا المجال، لأني شعرت بالتحريض لأسأل من ثم وبطريقة أكثر مناورة من طريقة نسيب، عن مقدار الثروة في الجبل. وكان الجواب إن أغنى الطرشان هو حمود أمير السويداء، ويبلغ دخله خمسة آلاف ليرة فرنسية. ولم يكن دخل نسيب يبلغ هذا المقدار، إذ لا يتجاوز الألف ليرة فرنسية سنوياً، ربما كانت في معظمها على شكل محاصيل. وتأتي كل الدخول المالية من الأرض وتختلف على نحو معتبر حسب طبيعة السنة الزراعية.

وفجأة نزل نسيب عن جواده وانشغل بمحادثة هامسة مع رجل عجوز هو مستشاره الرئيسي، بينما تجمهر الباقون حولي وأخبروني حكايا عن الصحراء، وعن وجود خرائب كثيرة في الجنوب، وعن استعدادهم لمساعدتي في رؤيتها إذا بقيت معهم، وشاهدنا في سفح التل مجموعة من الخيالة، وقد أخبروا نسيباً بعض الأخبار الهامة حول العرب. ووقفت وميخائيل جانباً ننظر إلى مضيفنا وهو ينظر إلينا بارتياب من زوايا عينيه. كان كل ما سمعناه أن التيار لا يمشي على نحو ملائم، ولا يستطيع أحد أن يعرف ذلك من وجه

نسيب الماكر الجامد الملامح، و من عينيه اللتين تخفيان تحت جفنيهما ما لا يريد أن يظهره، وكأنه يريد أن يكون واثقاً من عدم خروج بريق واحد منهما يمكن أن يكشف أفكاره. وهنا تركناه لنجدته الحربية الواضحة وصعدنا إلى التل. الآن وفي هذه المنطقة لا يوجد تلال بارزة في جبل الدروز، فيما عدا وجود ملاجئ في قممها، والأبنية كلها من ذلك الطراز الذي يعود إلى ما قبل مجيء الدروز أو الأتراك إلى المنطقة[1]. ترى ما هو تاريخ هذه الملاجئ أو الملاذ.

هل أقيمت لإله الصخر والهضاب النبطية روزيرا واللات، أو مجمع آلهة سامية كتلك التي يعبدها عرب الصحراء ويتقربون إليها بأضحياتهم في الكعبة[2]. وفي العديد من التلال المنعزلة؟ فإذا كان ذلك كذلك فإن هذا يعني أن الآلهة القديمة مازالت مسيطرة تحت أسماء أخرى، وما تزال تشم رائحة دماء الماعز والأغنام وهي تتناثر على عتبات أبواب مساكنهم السوداء، وما تزال تسمع صلوات حجاجهم وهم يحملون أغصان الأشجار، وباقات الزهور، وكما هو الحال في ولي الله الخضر، يوجد دائماً في داخل الحرم المقدس نصب

(١) الحقيقة أنه لم تحدث هجرة تركية إلى العالم العربي، وبقيت البلاد العربية تحت الحكم العثماني الإسلامي محافظة على هويتها القومية، ولم يكن هناك فروق بين مواطني الدولة العثمانية، وكان تنقل الأفراد وسكناهم في أرجاء الدولة العثمانية يتم بشكل فردي وحر. والأفراد العرب الذين نزحوا إلى هذا الموضع أو ذاك من أجزاء السلطنة طُبعوا بطابع سكانه فاستتركوا أو استكردوا أو أصبحوا ألبانا أو بوسنيين أو يونان. والأتراك الذين سكنوا في البلاد العربية أصبحوا عرباً ، ولم يكن ثمة تمييز عرقي أو عنصري كما تريد أن توحي المؤلفة، وما يسمى بالجيش التركي لم يكن جيشاً تركياً، بل لا نغالي إذا قلنا أن معظم عناصره في البلاد العربية، كانوا من العرب أو الأكراد أو الشراكسة دون تفريق فالجميع إسلام، أما الدروز فقد كانت عوامل مذهبية تحول دون امتزاجهم بباقي السكان الذين كانوا في كثرتهم الساحقة من السُنّة بصرف النظر عن العرق. (المترجم).

(٢) لا يقدم العرب أو المسلمون أضحياتهم في الكعبة أو على الحجر الأسود، وحديث المؤلفة على هذا الشكل يعكس جهلاً أو تجاهلاً بالشعائر الإسلامية. (المترجم)

مثل الناووس مغطاة بمزق من الخرق الملونة وعندما ترفع القماش الملون وتحدق تحته فسوف تجد بعض الحجارة البركانية أصبحت ملساء بسبب إراقة دماء الأضاحي على هذه الحجارة أسوة بأخيها الحجر الأسود في مكة[1]. وفي القرب في متناول اليد ثمة حوض ماء حجري، كان الماء متجمداً في الحوض في ذلك اليوم كما أن الثلج اندفع إلى الداخل عبر الباب الحجري وذاب من خلال السطح. ولذلك فقد تجمع على شكل بركة موحلة على الأرض.

كان اليوم التالي بارداً على نحو أكبر بكثير، مع سماء رصاصية اللون ورياح قاسية تنذر بالثلج. وأتى ملحم اليان يدعوني للجوء إلى منزله، ولكني رفضت مخافة أن أشعر ببرودة خيمتي الشديدة قياساً بغرفته الدافئة. وبقي

**٥٣ ـ فلاحون دروز**

(١) لا يقدم العرب أو المسلمون أضحياتهم في الكعبة أو على الحجر الأسود. وحديث المؤلفة على هذا الشكل يعكس جهلاً أو تجاهلاً بالشعائر الإسلامية. (المترجم)

لبعض الوقت واغتنمت الفرصة لأناقش معه خطتي في الركوب إلى الصفا وهي القفر البركاني الواقع إلى الشرق من جبل الدروز. ولم يشجعني على الإطلاق، وقد فكر في الواقع أن اختراقها في الظروف الحالية مستحيل؛ لأنه يبدو أن قبيلة الغياث وهي القبيلة التي تقطن الصفا في حالة عصيان مسلح ضد الحكومة، فقد كمنوا للبريد الصحراوي الذي يذهب من دمشق إلى بغداد ونهبوه، ويتوقع أن ينالوا عقوبتهم على يد الوالي، وإذا أرسلوا معي حراسة صغيرة من الدرك فإن الغياث سيمزقونهم إربا. وقد وافق ملحم على أنني أستطيع أن أذهب وحيدة مع حرس من الدروز؛ لأن أي اعتماد على الجيش غير مفيد إطلاقاً. وقد وعد أن يعطيني رسالة إلى محمد الناصر، شيخ الصالح الذي وصفه بأنه صديقه الشخصي، وأنه رجل حكيم وذو نفوذ، وعلى نحو مشابه كان وضع الغياث مع الدروز كما هو حال الجبيلية، فهم لا يستطيعون أن يكونوا على علاقة سيئة مع الجبل، حيث إنهم يعتمدون على الرعي في مرتفعاته في الصيف.

رددت الزيارة لملحم حوالي غياب الشمس، كانت غرفته مليئة بالناس بما في ذلك نسيب الذي عاد للتو من حملته العسكرية. وقد طلبوا مني أن أخبرهم عن تجاربي الحديثة عن الوضع في الصحراء، وقد وجدت أن كل أصدقائي هناك على علاقة سيئة مع الدروز، وأن الأخيرين ليس لديهم حلفاء إلا قبيلة الغياث والجبيلية. فالشرارات والدجا وبني حسان بينهم جميعاً وبين الدروز الكثير من الدماء، في الصحراء تأتي كلمة عدو (كَوم) بعد كلمة ضيف. أما في الجبل فإن كلمة عدو تأتي دائماً في المقدمة.

قلت: يا نسيب يشبه الدروز أولئك الذين عناهم قُريط بن أُنيف عندما يقول:

**قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم  طـاروا إليـه زرافـات ووحـــدانا**

**٥٤ ـ بصرى اسكي شام**

واسترخى الشيخ الهادئ الماكر مرة ثانية، ولكن الكلام كان قد انحرف إلى موضوعات خطيرة جداً، وسرعان ما نهض بعد فترة وجيزة وذهب، وسرعان ما حل محله ضيف آخر (إن دلة قهوة ملحم تبقى مغلية على النار منذ فجر اليوم إلى ساعة متأخرة من الليل). وبعد قليل دخل شخص نهض الجميع لتحيته والترحيب به، كان القادم كرديش آغا وهو رجل عجوز ظريف بشارب أبيض وذقن حليقة نظيفة، وهو يأتي من دمشق بين فترة وأخرى لقضاء بعض أعماله، وكان ملحم من مواطني دمشق وكان لديه الكثير من الأسئلة التي يود سماع الإجابة عنها. وتحول الكلام عن الموضوعات المرتبطة بالصحراء وأخذ يتقافذ حول سكان المدن وطرق حياتهم ووجهات نظرهم.

«انظري فخامتك» قال الرجل الذي يصنع القهوة فوق كانون النار:«لا يوجد تدين في المدينة مثلما هو في الريف».

«نعم» عقب ملحم.

«الله ينعم عليك» هتف الكردي فجأة.

«الله يكافيك يا آغا قد تشاهد عدداً من الرجال في المسجد الكبير في دمشق أثناء صلاة الجمعة. وعدداً أقل في بيت المقدس، ولكن في بيروت وأزمير المساجد خالية وكذلك الكنائس، فليس هناك دينٌ أبداً.

قال كرديش آغا: يا أصدقائي أنا سوف أخبركم السبب، في الريف الناس فقراء وهم معوزون كثيراً، فممن يطلبون العون إن لم يطلبوه من الله؟ فليس هناك من هو شفوق بالفقراء إلا هو. أما في المدينة فالناس أغنياء، وهم يحصلون على كل ما يريدون، فلماذا يصلون للإله، في حين أنهم لا يريدون شيئاً؟.. إن فخامتها تضحك.. أليس الوضع مماثلاً في بلادها؟.

واعترفت أنه لا يوجد إلا فروق ضئيلة بين الوضع في أوربا والوضع في آسيا، وتركت ـ حالاً ـ الجماعة ليتابعوا شرب قهوتهم وأحاديثهم دون وجودي معهم.

أتى شخص في وقت متأخر من الليل وطرق عليّ باب خيمتي وسمعت صوت امرأة تناديني.

ـ يا سيدة.. يا سيدة.. قالت «أليس الإنكليز عطوفين؟». أصغ إلى قلب أم حزينة وخذي هذه الرسالة إلى ولدي، وسألت المتوسلة غير المرئية أين يمكن أن يكون ابنها؟.

«في طرابلس.. في طرابلس الغرب، إنه عسكري ومنفي ولا يستطيع أن يعود مع الآخرين بعد الحرب.. خذي هذه الرسالة وأرسليها مع يد أمينة من دمشق لأنه لا يوجد بريد موثوق في صلخد.؟»

وفتحت طرف الخيمة وتناولت الرسالة. فتابعت بصوت عال: «لقد أخبرتني زوجة نسيب أنك نبيلة.. قلب الأم.. أنت تفهمين قلب الأم الحزين..!»

وأرسلت الرسالة مع البريد الإنكليزي من بيروت، ولكننا لا نعلم إذا كانت ستصل إلى طرابلس الغرب أو إلى الدرزي المنفي ولن نعلم.

جاء القائم مقام لزيارتنا قبيل سفرنا في صباح اليوم التالي، وأمدنا بشرطي درزي ليدلنا على طريق صالحة. كانت الرياح باردة على نحو لاذع، وقد تحدثوا عن أن الثلج قد يوجد على نحو مرتفع جداً على التلال. ولهذا السبب أخذنا في مسيرنا طريق قرية عرمان، وهي قرية ذكر أنها كانت ساحة للقتال في الحرب الأخيرة بين الدروز والحكومة العثمانية. كان ملحم يثق بدليلنا يوسف فأعطاه الرسالة التي وصلت مع البريد الذي كان قد وصل إلى صلخد قبل وصولنا بقليل، وكانت كل ما يحمله وهي مرسلة إلى المسيحي الوحيد الذي يقطن عرمان، وقد قابلناه خارج القرية. وكانت الرسالة مرسلة من ولاية مساشوستس في الولايات المتحدة من أحد أولاده الثلاثة الموجودين هناك، وكانوا قد أرسلوا له على نحو مشترك ثلاثين ليرة في السنة قبل الماضية. وقد طغى عليه الفرح وشعر بالفخار عندما أعطيناه الرسالة التي تحتوي أخباراً جديدة عنهم. وفي عرمان يتجه الطريق نحو الارتفاع. وأنا لا أزال أدعوه طريقاً رغبة في إيجاد اسم يعبر عنه على نحو كاف. إنه نوع من النظام الدرزي في الدفاع الذي يقتضي عدم وجود مسلك في الجبل، ذي

عرض يتسع لسير شخصين، أو ممهدا بما يكفي ليسير فيه الإنسان بدون أن يتعثر وهذا هو الجزء الأكثر نجاحاً في الخطة الدفاعية. وسرعان ما أصبحنا بين الثلوج نصف مبللين، نصف متجمدين. وكان الثلج يختبئ في وهاد الطريق ولكن هذه الوهاد ليست صلبة بما يكفي لتحمي الحيوانات من الوقوع فيها. وكنا نصادف ما بين فترة وأخرى جروفاً عميقة فتصعدها البغال بكل ثقة لتسقط في منتصف الطريق مبعثرة حمولتها على الأرض. على حين كانت الخيول تقتحمها وثباً حتى لتكاد تسقطنا عن ظهورها. وقد وقع ميخائيل ـ الذي لم يكن خيّالاً ماهراً ـ في الثلج عدة مرات.

لقد سمح صانعوا خريطة اكتشاف فلسطين لخيالهم أن ينطلق حراً في وصف المنحدرات الشرقية لجبل الدروز. فقد قفزت بعض التلال مسافة أميال، وعبرت قرى الوديان الشديدة الانحدار واستقرت على الاتجاهات المعاكسة لحواف الوديان. وكمثل على ذلك، فإن قرية أبو زريق الواقعة على يسار وادي الراجل قد وضعوها في الخريطة على اليمين. وقد بدا كل شيء مع الوقت كما لو أننا في ذلك اليوم من رحلتنا مقبلون على ارتكاب خطأ كبير. وقد تتوجت مأساتنا عندما دخلنا حقل ثلج لا متناه، تقوم بمسحه عاصفة ثلجية من المطر المتجمد الجارح. وفي نهاية الرحلة الغامضة التي بدت قصية بعيدة المنال استطعنا أن نرى من خلال ندف الثلج المتساقط المتجمد المنحدرات التي تقع عليها صالة. واقتربنا من خلال كفاحنا ميلاً بعد ميل (كان من غير المجدي ركوب الحيوانات التي كانت تتعثر في هذا الطريق الثلجي الوعر إضافة للبرد الشديد) من هدفنا بعد أن سرنا سبع ساعات في طريق يمكن قطعه في أربع ساعات، وشقفنا طريقنا في الوحل والرذاذ حتى وصلنا

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم عبر تلال من الثلج نصف الذائب والبرك التي قامت بواجبها كشوارع. ولم يكن ثمة أي مكان جاف في جميع أرجاء القرية. وكان الثلج يتساقط بكثافة. ولم يكن هناك مجال لعمل أي شيء سوى قرع باب محمد النصر الذي كان يمتلك سمعة مشرفة بكرم الضيافة. وعملت جهدي حتى صعدت درج مضافته المغطى بالجليد.

إذا كانت العناية الإلهية سوف تعوضنا عن متاعب اليوم فقد عوضتنا أو عوضتني على الأقل مقداراً من المتعة فاق ما أستحقه وزيادة من خلال المساء الساحر الذي قضيته في منزل الشيخ محمد النصر. وهو رجل حكيم عركته السنون، وقد امتد به العمر ليشاهد عائلة كبيرة من أولاده وأبناء إخوته وأخواته يكبرون ويتكاثرون حوله، وليشذبوا ذكاءهم اللماح بكياسته وعظيم مثاله. الدروز كلهم مهذبون على نحو متميز، ولكن نبل عائلة شيخ صالة لا يقاس فقط بحسن النشأة أو الخلق الطبيعي أو المكتسب، أو بأنبل أرستقراطية الأعراق الفارسية أو الراجبوتية، أو أي شيء آخر خارج ذواتهم، ولم تكن رسالة ملحم ضرورية لأحظى بكرم الضيافة. لقد كان كافياً أن أكون بردانة وجائعة وإنكليزية. كانت النار مشتعلة في الموقد الحديدي، وأخذوا أرديتي الخارجية المبللة، ومدت البسط ووضعت الوسائد فوق الديوان تحت إشراف الشيخ وتوجيهاته، وأتى جميع أقربائه القريبين والبعيدين ليشاركوا في بهجة المساء. لقد كانت البداية جيدة، وكنت أعرف أن أوبنهايم قد أخذ حراسة من صالة عندما ذهب إلى الصفا، وقد صدف وكان كتابه معي. وكم شعرت بالأسف لأن غريزة الحكمة لم تلهمني لاختيار مجلدي داسو الرائعين بدلاً من اختيار كتاب أوبنهايم الممل المحتوي على معلومات قليلة القيمة

وعديمة النفع في رحلتي الحالية. وميزة هذا الكتاب العظيمة هو وجود عدد من صور النقوش فيه، وكذلك صورة محمد النصر مع ولديه الأصغر لحسن الحظ. وحيث إنني كنت قد لخصت خرائط كيبرت فقد أظهرت كرمي الزائد بإعطاء جزء منها إلى أحد أفراد العائلة الذي كان قد رافق العالم الألماني في

٥٥ ـ بوابة قرية حبران

بعثته الأثرية. وقد بقيت في صالة لتكون متعة ومجداً للمشايخ الذين سوف ينظرون إلى الصور دون أن يحاولوا تلمس طريقهم إلى النص. وقد سدت الثغرة في رف كتبي بالتذكر بمتعتهم.

وواصلنا الحديث طوال فترة المساء دون انقطاع مع توقف قصير أدخل أثناءه عشاء فاخر. وأكلنا أنا والشرطي والشيخ سوية، وأكل المقدار الكبير الباقي الكبار من أبناء الأخ أو الأخت وأبناء العم. وكان الموضوع المستحوذ على الاهتمام في صالة هو الحرب اليابانية. وفي الواقع كان اتجاه المحادثة يدور على نحو مغاير في الجبل، والسبب أن الدروز يعتقدون أن اليابانيين ينتمون إلى عرقهم[1]. وخط المناقشة أو المحاجة الذي قادهم إلى هذه النتيجة المدهشة بسيط. فالكتب السرية الخاصة بهم تتحدث عن آمال بأن جيشاً من الدروز سوف ينطلق من أبعد نقطة من آسيا ويحتل العالم. وقد أظهر اليابانيون في الحرب الأخيرة شجاعة لا تقهر، والدروز شجعان أيضاً، وقد انتصر اليابانيون، ونبوءة الدروز تقول: إنهم لن يُغلبوا، ولذلك فإن الطرفين يُعدان واحداً ومن الجماعة نفسها، وعواطف كل إنسان سواء في سوريا أو في آسيا الصغرى مع اليابانيين، مع استثناء وحيد متمثل بالطائفة المسيحية الأرثوذكسية التي تنظر إلى روسيا باعتبارها حامية لها. ويبدو من الطبيعي أن تشعر الحكومة العثمانية بالبهجة لمشاهدة هزيمة عدوتها المزمنة، ولكن من الصعب تفسير فرح العرب والدروز (بصرف النظر عن تنبؤات الدروز السرية

(١) ذكرت المؤلفة كلمة عرقهم أو عنصرهم، والواقع أن هذا مخالف للواقع، فالدروز يعتزون بعروبتهم اعتزازاً كبيراً، ولا يمكن أن يخالج أحد منهم شك أنهم يلتقون بأي حال من الأحوال مع العنصر الياباني. أما موضوع العقيدة فهو أمر فيه نظر وغير بعيد من خلال الجهل الذي كان مسيطراً في مطلع القرن، وهو الذي يفهم من سياق حديث المؤلفة. (المترجم)

التي ذكرت أعلاه). والأكراد الذين بينهم وبين الأتراك حب مفقود. فهذه الشعوب غير ميالة للشعور بالسرور لهزيمة أعداء السلطان الذين يشاركونهم المشاعر نفسها تجاهه. في الأساس يوجد ـ دون شك ـ نوع من الغموض، والحافز الطبيعي للعطف على الرجل القتيل ضد الكبير المتنمر المستأسد، ووراء كل ذلك، هناك الرابطة الغريبة الصعبة التصنيف فيما عدا اسم القارة والحرب التي تروق للآسيويين؛ لأنه ضد الأوربيين، مهما كانت رغبتك بالاحتجاج بأن روسيا لا يمكن اعتبارها نموذجاً للمدنية الأوربية. وعلى أي حال من الممكن أن

٥٦ ـ دروز في مضافة حبران

تكون قانعاً بعمق أن اليابانيين لم يظهروا إلا اهتماماً ضئيلاً بالأتراك أو بالدروز، وكان اهتمامهم بسكان بحر الجنوب والإسكيمو أكبر، ولكن نداء آسيا للآسيويين أو الشرق ينادي الشرق قد تردد صداه من بحر الصين حتى البحر المتوسط.

وتحدثنا حول الأتراك، وكان الشيخ محمد من بين من نفوا بعد الحرب بين الدروز والسلطان من الجبل، فزار إستنبول، كما شملت خبراته آسيا

الصغرى ولذلك يمكن أن يكون مؤهلاً لأعطاء رأي معقول حول صفات الأتراك، بتقييم عشوائي للطريقة التي يدير بها التركي معظم مصالحه. إن نقل جملة من مشايخ الدروز بالقوة وإرغامهم على العيش مدة سنتين أو ثلاثة في مدن بعيدة عن بلادهم قد وضعت حداً لما كان يمكن لبعد النظر في فن إدارة الحكم أن يفعله عبثاً. فالرجال الذين لم يبتعدوا قط أكثر من خمسين ميلاً عن قراهم قد تعلموا بالقوة بعض المعلومات عن العالم الخارجي، وقد عادوا ليمارسوا كما اعتادوا من سابق سلطاتهم نصف مستقلين، ولكن عقولهم عرفت على مضض الانطباع عن مدى سعة البلاد التابعة للسلطان. ومصادر إمكاناته اللانهائية، والمقارنة بعدم أهمية الثورات الدرزية في إمبراطورية ما تزال حية، مع أنها مرتبطة في جميع المنازعات الدولية.

وقد قنع محمد تماماً بأن هناك عالماً خارج حدود الجبل الضيقة، بحيث حاول أن يدفع اثنين من أولاده الستة خارج عالم الجبل المحدود فأرسلهما إلى دمشق حيث وضعهما في أحد المكاتب الحكومية هناك. وقد فشل رغم كل حكمته التي وضعها في أذنيهما. فالولدان كانا سميكي المخ، وقد أدت عقلية الشباب المهمل مع التعنيف القاسي من رئيسهم إلى رجوعهم إلى القرية، حيث يستطيعون أن يصبحوا شيوخاً مستقلين نموذجيين ومحترمين.

وقد اشترك محمد في جريدة أسبوعية تصدر في دمشق، وقد تابعت كل العائلة بأقصى درجات الاهتمام أخبار السياسة الخارجية، والبريطانية منها بشكل خاص باعتبارها هاربة من قلم الرقيب، وتغيب بعض الأخبار الهامة عن ملاحظتهم، كما قد تغيب عن محرر الجريدة. ولذلك فقد سأل مضيفي عن اللورد (سالزبوري) وقد حزنوا كثيراً عندما أعلمتهم أنه قد توفي قبل سنوات. والاسم الآخر الذي كانوا يعرفونه بالإضافة إلى اللورد كرومر الذي كان

معروفاً دائماً وفي كل مكان هو السيد (تشمبرلان). وعند هذه النقطة ثارت مناقشة حامية في المضافة الدرزية حول مالية الحكومة، وقد تم شرحها بإسراف من قبلي مع أمثلة مأخوذة من مصلحة الجمارك. ولعل حججي كانت أقل كشفاً للتناقض من تلك التي يطرحها معظم التجار الأحرار التي يمكنهم وضعهم من طرحها. لأن كل أهل صالة رفضوا مبادئ الحماية والمقابلة بالمثل المجمع عليه (لا يوجد هنا حل وسط).

كان ثمة نقطة واحدة لم تحظ بقناعة تامة بالنسبة للجميع وكانت قضية رحلتي إلى حرة الصفا، وكان لدي شك قاس بأن رسالة ملحم التي سلمت إليَّ مختومة بحيث لم أكن أستطيع قراءتها، كانت مثل الرسالة التي سلمها (بروتس) لـ (بليروخون) عندما أرسله إلى ملك ليشيا، وفيما إذا كان الشيخ محمد قد أمر بأن يتم إعدام حامل الرسالة فور وصوله. كان قد أوصى بقوة بعدم تشجيع حدوثها. وعلى أي حال فقد كان من رأيه أن البعثة لا يمكن إنجازها إلا إذا اصطحبت معي عشرين درزياً على الأقل كحرس. الأمر الذي يحتاج إلى تحضيرات كبيرة ونفقات، الأمر الذي أرغمني على نبذ الفكرة.

وسُئلت في الساعة العاشرة عن الساعة التي أرغب أن أذهب إلى النوم فيها، وبكدر واضح بالنسبة لتلك الجماعة التي لم تركب طوال النهار قلت: إن الوقت قد حان، وخرج الأبناء والأحفاد وجلبت لحف محشوة وكومت على ثلاث فرش واحدة في كل جهة على ديوان ضخم واندسسنا كل في فراشه أنا والشيخ ويوسف، ولم أعد أشعر بشيء حتى نهضت من النوم في وقت مبكر من الفجر على البرد القارس. ونهضت وخرجت من الغرفة استنشق الهواء النقي. وتنام صالة بعمق تحت الثلج حتى الجدول الذي يتدفق خارج النبع

الروماني في وسط القرية نام تحت معطف سميك من الجليد. وراقبت في سكون البرد النقي، السماء الشرقية حمراء وشاحبة، والشمس التي أرسلت شعاعاً طويلاً من الضوء فوق حقل الثلج الذي كنا نناضل فيه البارحة. وأرسلت تحية شكر قصيرة للطقس الملائم. وأيقظت البغالة والبغال الذين كانوا يستريحون في أقبية الخان المعتمة، وتناولت طعام الفطور الذي قدمه محمد النصر، وودعتهم جميعاً وداعاً طويلاً مع أعظم الشكر على ضيافتهم ولم أحظ باستراحة ليلية، ولا بصحبة شيقة ملائمة في أي من رحلاتي في السهول والجبال كما حظيت بهذه الليلة في صالة.

٥٦ ـ عتبة في الخربة